

القصص

قصة أثرية واقعية

محمد الصغير للأستاذ علي الطنطاوي

قال :

كنت يومئذ صغيراً ، لا أفقه شيئاً مما كان يجري في الخفاء ، ولكنني كنت أجد أبي - رحمه الله - يضطرب ويصفر لونه كلما عدت من المدرسة فتلوت عليه ما حفظت من (الكتاب المقدس) ، وأخبرته بما تعلمت من اللغة الأسبانية ، ثم يتركني ويمضي إلى غرفته التي كانت في أقصى الدار ، والتي لم يكن يأذن لأحد بالدخول إليها ، فيلبث فيها ساعات طويلة ، لا أدرى ما يصنع فيها ، ثم يخرج منها محمراً العينين ، كأنه قد بكى بكاء طويلاً ، ويبقى أياماً ينظر إلى بلهفة وحزن ، ويحرك شفثيه فعلاً من يهم بالكلام ، فإذا وقفت مصنياً إليه ولا أني ظهري ، وانصرف عني من غير أن يقول شيئاً - وكنت أجد أبي تشبعتني كلما ذهبت إلى المدرسة حزينة دامة العين ، وتقبلني بشوق وحرقة ، ثم لا تشبعتني فتدعوني فتقبلني مرة ثانية - ولا تفارقني إلا باكياً ، فأحس نهاري كله بحرارة دموعها على خدي ، فأعجب من بكائها ولا أعرف له سبباً ؛ ثم إذا عدت من المدرسة استقبلتني بلهفة واشتياق ، كأنني كنت غائبا عنها عشرة أعوام - وكنت أرى والدي يبتعدان عني ويتكلمان همساً بلغة غير اللغة الأسبانية ، لا أعرفها

• أخذنا فكرة هذه القصة من السطور الأولى من مقدمة كتاب (الأنوار النبوية في آراء خير البرية) لسيد محمد بن عبد الرزاق الأندلسي المتوفى بالقرب سنة ١٠٥٢ ، وهو كتاب مخطوط ، وقد قرأنا هذه المقدمة في الجزء الثاني في الصفحة (٢٤) من كتاب (حاضر العالم الإسلامي ، طبع مصر ١٣٥٢)

ولا أفهمها ، فإذا دنوت منهما قطعا الحديث وحوالا ، وأخذتا يتكلمان بالأسبانية فأعجب وأنا لم وأذهب أظن في نفسي الظنون حتى إنني لأحسب أنني لست ابنيهما ، وإنني لقيط جاء به من الطريق فيرحب في الألم فأوى إلى ركن في الدار بمنزل فأبكي بكاء مرأ - وتوالت علي الآلام فأورقتني مزاجاً خاصاً يختلف عن مزاج الأطفال الذين كانوا في مثل سني ، فلم أكن أشادهم في شيء من لبهم ولهموم ، بل أعزلمهم وأذهب ، فأجلس وحيداً أضع رأسي بين كفي ، وأستغرق في تفكيري ، أحاول أن أجد حلاً لهذه المشكلات . . . حتى يجذبني الخورى من قيصي لأذهب إلى الصلاة في الكنيسة . . .

وولدت أي مرة ؛ فلما بشرت أبي بأنها قد جاءت بصبي جميل ، لم ينتهج ولم تلح على شفثيه ابتسامة ، ولكنه قام يجر رجله حزينا ملتاعاً ، فذهب إلى الخورى فدعاه ليمد الطفل ، وأقبل يمشي وراءه وهو مطرق برأسه إلى الأرض وعلى وجهه علامة الحزن البرح واليأس القاتل ، حتى جاء به إلى الدار ودخل به على أبي . . . فرأيت وجهها يشحب شحوباً هائلاً ، وعينها تشخصان ، ورأيتها تدفع إليه الطفل خائفة حذرة . . ثم تغمض عينيها ، غرت في تحليل هذه المظاهر ، وازدردت لما على ألي . . حتى إذا كانت ليلة عيد الفصح ، وكانت غرناطة غارقة في المطر والنور ، والحرارة تتلألأ بالشاعل والأضواء ، والصلبان تومض على شرفاتها وما ذنبا ، دعاني أبي في جوف الليل ، وأهل الدار كلهم نيام ، فقادني صامتاً إلى غرفته ، إلى حرمه المقدس ، نفق قلبي خوفاً شديداً ، واضطربت ، لكنني تماسكت وتجلدت ، فلما توسطت في الغرفة أحكم إغلاق الباب ، وراح يحث عن السراج ، وبقيت واقفاً في الظلام لحظات كانت أطول علي من أعوام ؛ ثم أشعل سراجاً صغيراً كان هناك ، ففلقت حولي فرأيت الغرفة خالية ليس فيها شيء مما كنت أتوقع رؤيته من المعجائب ، وما فيها إلا بساط ، وكتاب موضوع على رف ،

الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . على أفضل مخلوقاته وسيد أنبيائه ، سيدنا محمد بن عبد الله النبى العربى صلى الله عليه وسلم

فتحت عيني من الدهشة . ولم أكد أفهم شيئاً
— قال : هذا كتاب الاسلام ، الاسلام الذى بعث الله به محمداً الى الناس كافة .. فظهر هناك ... وراء البحار والوادي ... في الصحراء البعيدة القاحلة ... في مكة ، في قوم بداء مختلفين مشركين جاهلين ، فهداهم به الى التوحيد وأعظام به الاتحاد والقوة والعلم والحضارة ، فخرجوا يفتحون به الشرق والمغرب ، حتى وصلوا الى هذه الجزيرة ، الى أسبانيا ، وكان ملكها جباراً غانياً ، وحكومتها ظالمة غاشمة ، وشعبها مظلوماً فقيراً جاهلاً متأخراً ، فقتلوا الملك الجبار ، وأزالوا الحكومة الظالمة ، وملكوا الأمر في أسبانيا ، فعدلوا بين الناس وأحسنوا اليهم وأمنوهم على أرواحهم وأموالهم ، وليثوا فيها ثمانمائة سنة . . . ثمانمائة سنة جعلوها فيها أرقى وأجل بلاد الدنيا

نعم يا بنى نحن العرب المسلمين ...
فلم أملك لساني من الدهشة والعجب والخوف ، وصحت به :
— ماذا ؟ نحن ؟ ... العرب المسلمين
— قال : نعم يا بنى . هذا هو السر الذى سأفصى به اليك ...
نعم . نحن ... نحن أصحاب هذه البلاد ، نحن بنينا هذه القصور التى كانت لنا فصارت لعدونا ؟ نحن رفعنا هذه المآذن التى كان يرن فيها صوت المؤذن ، فصار يقرع فيها الناقوس ؟ نحن أنشأنا هذه المساجد التى كان يقوم فيها المسلمون صفاً بين يدي الله ، وأمامهم الأئمة يتلون في المحارب كلام الله فصارت كنائس يقوم فيها القسيس والرهبان يرتلون فيها الانجيل ...

نعم يا بنى ... نحن العرب المسلمين ، لنا في كل بقعة من بقاع أسبانيا أثر ، وتحت كل شبر منها رفات جد من أجدادنا ، أو شهيد من شهدائنا . نعم ... نحن بنينا هذه المدن ، نحن أنشأنا هذه الجسور ، نحن مهدنا هذه الطرق ، نحن شققنا هذه الترع ، نحن زرعنا هذه الأشجار ...

ولكن منذ أربعين سنة ... أسمع أنت ؟ منذ أربعين سنة خدع الملك البائس ، أبو عبد الله الصغير آخر ملوكنا في هذه الديار بوعود الاسبان وعهودهم فسلمهم مفاتيح غرناطة ، وأباحهم حتى أمته ومدافن أجداده ، وأخذ طريقه الى بر المغرب ، ليموت

وسيف معلق بالجدار ، فأجلسني على هذا البساط ، ولبت صامتاً ينظر الى نظرات غريبة ، اجتمعت على هي ورهة المكان ، وسكون الليل ، فشعرت كأنني انفصلت عن الدنيا التى تركتها وراء هذا الباب ، وانتقلت الى دنا أخرى ، لا أستطيع وصف ما أحسست به منها . . . ثم أخذ أبى يدي يديه ، بمخو وعطف وقال لي بصوت خافت :

— يا بنى ! إنك الآن في الماشرة من عمرك ، وقد صرت رجلاً ، وإني سأطملك على السر الذى طالما كتمته عنك . فهل تستطيع أن تحتفظ به في صدرك ، وتحمسه عن أمك وأهلك وأصحابك والناس أجمعين ؟ إن إشارة منك واحدة الى هذا السر تعرض جسم أبيك الى عذاب الجلادين من رجال « ديوان التفتيش »

فلما سمعت اسم ديوان التفتيش ارتجفت من مفرق رأسى الى أنخص قدى ، وقد كنت صغيراً حقاً ، ولكنى أعرف ما هو ديوان التفتيش ، وأرى ضحاياه كل يوم وأنا غاد الى المدرسة ورائع منها — فن رجال يصلبون أو يحرقون ، ومن نساء يطلقن من شموهرهن حتى يمتن ، أو تبقر بطونهن ، فسكت ولم أجب
— فقال لي أبى : مالك لا تجيب ؟ أتستطيع أن تكتم ما سأقوله لك ؟

— قلت له : نعم
— قال : تكتمه حتى عن أمك وأقرب الناس إليك ؟
— قلت : نعم
قال : — فاقرب منى . أهدف سميك جيداً . فاني لا أقدر أن أرفع صوتي . أخشى أن تكون للحيطان آذان تسمعن فتشني بي الى ديوان التفتيش فيجرقني حياً ...

فاقربت منه ، وقلت له :
— إني مصنع يا أبت

فأشار الى الكتاب الذى كان على الرف . وقال :
— أتعرف هذا الكتاب يا بنى ؟
— قلت لا

— قال هذا كتاب الله
— قلت الكتاب القدس الذى جاء به يسوع ابن الله ؟
فاضطرب وقال :
— كلا . هذا هو القرآن الذى أنزله الله الواحد الأحد

وكان يمتحنني فيدس أُمى إلى فتسألني :

— ماذا يملك أبوك ؟

— فأقول : لا شيء .

— فتقول : إن عندى نبأ مما يملك ، فلا تكتمه عني

— فأقول : إنه لا يملنى شيئاً

حتى أتقنت العربية ، وفهمت القرآن ، وعرفت قواعد الدين ،

فمرّفتى بأخ له في الله ، فكنا نجتمع نحن الثلاثة على عبادتنا وقرأتنا

واشدت بعد ذلك قسوة ديوان التفتيش ، وزاد في تنكيله

بالبقية الباقية من العرب ، فلم يكن يمضى يوم لا يرى فيه عشرين

أو ثلاثين مصلوباً ، أو محرقاً بالنار حياً ؛ ولا يمضى يوم لا نسمع

فيه بالثلاث يمدبون أشد المذاب وأفظله ، فتقلع أطافهم وهم يرون

ذلك بأعينهم ، ويسقون الماء حتى تنقطع أنفاسهم ، وتكوى

أرجلهم وجنوبهم بالنار ، وتقطع أصابعهم وتشوى وتوضع في

أفواههم ، ويجلدون حتى يتناثر لحمهم ...

واستمر ذلك مدة طويلة ، فقال لى أبى ذات يوم : إني

أحس يا بنى كأن أجلى قد دنا ، وإني لأهوى الشهادة على أيدي

هؤلاء ، لعل الله يرزقني الجنة ، فأفوز فوزاً عظيماً ؛ ولم يبق لى

مأرب في الدنيا بعد أن أخرجتك من ظلمة الكفر وحملتك

الأمانة الكبرى التي كدت أهوى تحت أثقالها ، فإذا أصابني

أمر فاطع عمك هذا ولا تخالفه في شيء .

ومرت على ذلك أيام . وكانت ليلة سوداء من ليالي السّرار ،

وإذا بمعنى هذا يدعوني ويأمرني أن أذهب معه ، فقد يسر الله

لنا سبيل الفرار إلى عنوة المغرب ، بلد المسلمين ؛ فأقول له :

وأبى وأبى ؟ ...

فيعنف على ويشدني من يدي ، ويقول لى : ألم يأمرك أبوك

بطاعتي ؟

فأمضى معه صاعراً كارهاً ، حتى إذا ابتعدنا عن المدينة

وشملنا الظلام ، قال لى :

— اصبر يا بنى ... فقد كتب الله لوالديك المؤمنين

السعادة على يد ديوان التفتيش ...

على الطنطاري

(دمشق)

هناك وحيداً فريداً شريداً طريداً ، وكانوا قد تمهدوا لنا بالحرية

والعدل والاستقلال . فلما ملكوا خانوا عهدهم كلها ، فأنشأوا

ديوان التفتيش ، فأدخلنا في النصرانية قسراً ، وأجبرنا على ترك

لقتنا إجباراً ، وأخذ منا أولادنا لينشئهم على النصرانية . فذلك سر

ما ترى من استخفافنا في العباد ، وحزننا على ما نرى من امتهان

ديننا ، وتكفير أولادنا

أربمون سنة يا بنى ونحن صابرون على هذا المذاب الذي

لا تحمله جلايد الصخر تنتظر فرج الله . لا نياس لأن اليأس

محرم في ديننا ، دين القوة والصبر والجهاد

هذا هو السريابنى فاكتمه واعلم أن حياة أيسك معلقة

بشفتيك ؛ ولست والله أخشى الموت ، أو أكره لقاء الله ، ولكنى

أحب أن أبقى حتى أعلمك لفتك ودينك ، وأتقذك من ظلام

الكفر إلى نور الايمان . فقم الآن الى فراشك يا بنى

صرت من بعد كلارأيت سُرف الحمراء ، أو مآذن غرناطة ،

تعروني هزة عتيقة ، وأحس بالشوق والحزن والبغض والحب

يضمّر قوادي ؛ وكثيراً ما ذهلت عن نفسي ساعات طويلة ، فاذا

تنهت رأيتني أطوف بالجرأ أخطبها وأغانيها وأقول لها :

أيتها الحمراء ... أيتها الحبيبة المهاجرة ، أنسيت بُنائتك

وأصحابك الذين غذك بأرواحهم ومهجم ، وسفوك دماءهم

ودموعهم ، فتجاهلت عهدهم ، وأنكرت ودمهم . أنسيت الملوك

الصيد الذين كانوا يجولون في أبهائك ، ويتكئون على أساطينك ،

ويفيضون عليك ما شئت من المجد والجلال والأنهة والجمال ،

أولئك الأعزة الكرام الذين إن قالوا أصغت الدنيا ، وإن أمروا

لبى الدهر . ألفت النواقيس بعد الأذان ، أرضيت بعد

الأعنة بالرهبان !

ثم أخاف أن يسمنى بعض جواسيس الديوان ، فأسرع

الكرّة إلى الدار لأحفظ درس العربية الذي كان يلقيه على أبى ،

وكأنى أراه الآن يأمرني أن أكتب له الحرف الأعجمى فيكتب

لى حذاه الحرف العربى ، ويقول لى : هذه حروفنا ، ويعلمنى

النطق بها ورسمها ، ثم يلقى على درس الدين ، ويعلمنى الوضوء

والصلاة لأقوم وراءه وهو يمسلى خفيه في هذه القرفة الرهيبة

وكان الخوف من أن أزل فأفنى السّر ، لا يفارقه أبداً ،